الدرس العاشر

التعليق على أمثال القران

الشيخ مشهور بن حسن -حفظه الله-

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد:

قال المؤلف -رحمه الله-: ((**تمثيل الكفار بالأنعام ومنها قوله ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أكثرهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأنعام ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾. فشبه أكثر الناس بالأنعام والجامع وبين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد له وجعل الأكثرين أضل سبيلا من الأنعام لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي وتتبع الطريق فلا تحيد عنها يمينا ولا شمالا. والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبل فلا يستجيبون ولا يهتدون ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم. والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق فتجتنبه وما ينفعها فتؤثره. والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبا تعقل بها ولا ألسنة تنطق بها وأعطى الله ذلك لهؤلاء ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار فهم أضل من البهائم**

فان من لا يهتدي إلى الرشد وإلى الطريق مع الدليل إليه أضل وأسوء حالا ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه)).

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن مُحَمَّدا عبده ورسوله.

أما بعد:

فهذا مثل صريح أيضًا وهو في ميدان العقيدة وأمثله القرآن جلها في بيان أثر الكفر وعدم الإيمان وهذا منها.

المثل في حق الكافر وقد يلحق الفاجر الذي لا يقيم وزنًا في أوامر الله عز وجل.

وهذا المثل يفيدنا في أمر مهم ينبغي أن يركز عليه طلبة العلم في خطابهم لعامة الناس. لماذا لا ينتفع الناس بقال الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمواعظ.

هذا خاص في الكفار.

الكفار لا قلوب لهم، فهم أضل، لذا عنونت على الكتاب (تمثيل الكفار بالأنعام) هذا العنوان بين معكوفتين هذا من كلامي لأنني المحقق، ليس من كلام المصنف. ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أكثرهُمْ ﴾ المراد أن أكثرهم أكثر من؟.

أكثر الكافرين.

لماذا قلنا أن المراد أكثر الكافرين؟

لأن الآية التي قبل هذه الآية في سورة الفرقان يقول الله عز وجل فيها ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فإذا الآية جاءت في الكفار.

فهذا المثل المضروب هو مثل للكفار وأنهم لا ينتفعون بالقران الكريم جاءت أم وهي مقرعة وتفيد أيضا الاستفهام وتفيد الانتقال من حال إلى حال أسوأ منه ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ مباشرة بعدها ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ ﴾ فالأمر الأول يفترض أنهم يسمعون وأنهم يعقلون ومع هذا فقد اختاروا الهوى إلهًا لهم وأما الاستفهام في هذه الآية فهو على إنكار أنهم يسمعون.
فالكفار لا يسمعون.

الكفار يسمع ولا لا يسمع؟

يسمع.

لا يسمع ولا يسمع.

يسمع ولا يسمع.

أذنه سليمة ويسمع، لكن الفهم معطل، التدبر معطل.

ولذا دائمًا الكفار في متاهة ضائعون، ودائمًا الكفار جنته الدنيا لأنهم لا يؤمنون بالآخرة أصلا، وسبب متاهة الكفار أن هنالك أربعه أسئلة غائبة عنهم لا يعرفونها ولا يتفكرون فيها البتة.

وهذه الأسئلة من أين؟ إلى أين؟ لماذا؟ كيف؟ من أين جئنا؟ وإلى أين نحن سائرون؟ ولماذا خلقنا ربنا تعالى؟ وكيف نؤدي الشيء الذي خلقنا الله تعالى من أجله؟.

هذه أسئلة مصيرية كلية ملحة يجب أن يقف عندها طويلا كل عاقل.

والكفار تائهون.

من أين جئنا؟ ما نعرف. أين ذاهبون؟ ما ننعرف. يخافون. أنا أدرك ماذا أقول. لأن الإنجيل والتوراة كلها خرافات.

من أين؟ خرافة. إلى أين؟ خرافة. لماذا؟ خرافة. لا يعرفون لا يوجد جواب.

الكفار لا يؤمنون بالآخرة.

وسر ضلال الكفار اليوم والشهوة التي لا تنتهي حالهم كحال العطشان كلما شرب ماء ازداد عطشًا، وكحال الجوعان كلما أكل طعاما ازداد جوعا.

لا يؤمنون بالآخرة الشهوات لا تنتهي.

وبالتالي هم كالأنعام فعلا الله كما قال هم كالأنعام الله الذي خلقهم وهو العالم بأحوالهم ف ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾.

ما أجمل الإنصاف.

الإنصاف جميل.

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾

هل تظن وتقدر أنهم يسمعون ويعقلون؟

فجاء أنهم لا يسمعون ولا يعقلون.

ولذا هم لا يهتدون ولا يتدبرون، فكان حالهم كمن لا يسمع أصلا، لأن الله عز وجل وهب لهم السمع ليتقوا به أضرار المفاجآت وليكونوا على يقظه فإذا لم يفد السمع إدراك الحق فهو في حقيقة أمره لم يسمع.

أمثل رجل عنده سيارة، كل ما احتاج لها ليشتري غرضا وجد ولده أخذها وهرب فيها. فلو قال أنا ما عندي سيارة أصاب. لو قال أنا ما عندي سيارة أصاب، لأن السيارة التي من أجلها أحضرت وشريت لما أردنا أن نحقق الهدف التي من أجلها أتينا بها ما وجدناها. فلو قلت عنده سيارة أصبت. ولو قلت ما عنده سيارة أصبت. فهكذا السمع والقلب بالنسبة للكفار، عندهم وليس عندهم.

لماذا ليس عندهم؟

لأنهم ما وظفوا ما آتاهم الله تعالى من السمع والبصر من أجل الغاية التي خلقهم الله تعالى بها.

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ التعميم خطأ، والحماس للتعميم خطأ.

وتسمع بعض الطلبة من طلبة العلم متحمسين لما يتحمسوا لمسألة سرعان ما يعممون. الله جل في علاه قال ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾. وقال الله أكثرهم لأن الله عز وجل عدل في حكمه.

نجد بعض الكفار يؤمن، غافل لكن فجأة يتذكر، وإسلام الكفار سبحان الله أولا وأخيرا من يهده الله فهو المهتد، ولكن قد تكون على أسباب نحن لا نقيم لها كبير وزن. واحد يرى أخر يشرب ماء جالسًا قال لماذا تشرب؟ قال هذا هدي النبي صلى الله عليه وسلم. فأسلم. بعض الكفار يسلم لأسباب عجيبة جدا .

ذكرت لكم زارني قسيس جاء يدرس لاهوت من أمريكا قال لازمت الحاخامات والقساوسة في أمريكا فوجدتهم أكثر شهوة من الناس، منهم المأبون الذي يحب يؤتى من الدبر، ومنهم المفتون بالزنا، قال فذهب للأردن وسكنت الدوار السابع في كنيسة وتتكلم بالدين وأرسلوه هنا في مرج الحمام في شقه مقابل مطعم عالي قريب. قال فجعت فنزلت أشتري شيء طعمية. قال فكنت كنت أشعر أني جائع أحتاج للطعام. وقال وأنا في الداخل جائع أحتاج أعرف حقائق عن الشرع. قال فوجدت تعرف العربي هذا أصله سوداني اسمه جعفر يعيش في أمريكا يقول سمعت الأخ مصري يبيع الطعمية واضع سورة مريم. قال فبدأت أشبع. أسمع سورة مريم وأشبع. قال فضعت وأنا جالس. قال بعدين سمعت وأنا في السوق وأمام بائع. فقال مالك ماذا تريد؟ قلت أريد الذي في الشريط. أريد الشريط. فجاءني حافظا لسورة مريم من كثرة سماعه لها. فالله يقول ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾. مثل هذا الرجل ، فيقسم لي بالله أنه سيفرغ سائر حياته ليفهم دين الله وينشره في الغرب أسال الله أن يثبته وأن يعينه على ذلك.

فالله عز وجل لما استنكر فعل هؤلاء استثنى وهذا الاستثناء قليل ليس هو الأصل.
لذا قال أكثرهم ولم يقل جميعهم، وهذا من الإنصاف العزيز قديما، وأما اليوم فالإنصاف كاد أن يكون عديما ليس عزيزا، كاد أن يكون عديما، فليس كل الكفار كأبي جهل وأبي لهب، وإن كان هؤلاء الكثرة المسيطرة على الجو الفكري في ذلك الزمان هو الكفر.

ولما بدأ الاسلام ينتشر بدأ يتلاشى هذا الأمر وامتن الله عز وجل على سائر الناس بأنهم دخلوا في دين الله سبحانه وتعالى حتى يئس الشيطان أن يعبد في جزيرة العرب.

ولكن بين الله سبحانه وتعالى أن هذه الكثرة من الكفار هم اسوأ من الأنعام فقال ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأنعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾. هنا نفي واثبات.

هم ليس كالأنعام وهم كالأنعام لأنهم ليسوا عاقلين لا يدركون الحق ولا يدركونه فشبههم الله سبحانه بالأنعام كما قال المصنف لجامع الجهالة وعدم الفهم، ما فهموا لماذا خلقوا وما هو المطلوب منهم وقد أكد الله تعالى جعلهم بقوله سبحانه ((بل هم اضلوا سبيلا)) هذا تأكيد لجهلهم .

فالأنعام تتبع هديها وتتبع من يأخذها الى المنجع والمعلف فتأكل أما هم فلا يتبعون من يدعوهم إلى الهدى وإلى الرشد.

فان إن تحسبوا أن اكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هنا بمعنى ليس نافية هم ليسوا كالأنعام ولكنهم اضل من الأنعام، لأن الغاية التي خلقوا من اجلها قد تعطلت.

هذا المثل ورد في أصالة في الكفار ولكن للأسف كثير من الفجار لهم نصيب منه. ويتضح الكلام بالبيان .

لماذا لا يلتفت الناس للمواعظ ما الذي يصد الناس عن الامتثال للأوامر وترك النواهي؟ سؤال ملح كل صادق يجب عليه أن يقف عنده طويلاً .

جاءك خبر وهذا الخبر لا يؤثر فيك ولا تظهر أثاره عليك ما هو السبب في ذلك؟ الأمور تتضح بأضدادها.

الأمور تتضح بأضدادها ، وأضدادها مذكورة في سورة ق ((إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد)).

الإنسان حتى يتأثر ويتذكر إن في ذلك لذكرى عليه أن يعمل قلبه إن كان له قلب وهو شهيد ومعنى أنه شهيد أي ليس بغائب، هذه الآية لها صلة بالتي معنا لأنها ضدها والأمور تتضح بأضدادها.

وهي مفتاح لجواب السؤال.

الناس يوعظون فلماذا لا ينتفعون؟

لا ينتفعون. لأسباب ثلاثة.

السبب الأول :

أنه يكذبه فلا يصدقه، ومن كذب شيئا من كتاب الله ومن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كفر ، تكذيب القرآن كفر واضح بين وتكذيب السنة المتواترة كفر، وتكذيب السنة الغير متواترة جهل وظلال.

والنبي صلى الله عليه وسلم أخبرنا عن أقوام في اخر الزمان فقال لا ألفين أحدكم جالسا على أريكته يقول بيننا وبينكم كتاب فما وجدنا فيه من حلال حللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه.

هذا الصنف الذي أخبر عنه النبي صلى جالسناه وسمعناه يقول العبارات هي هي يقول لك أعطيني آية في القرآن أنا لا أؤمن إلا بالقرآن، هذا حديث ضعيف، ما شاء الله تبارك ما شاء الله ما شاء الله. أصبح يعرف الحديث الضعيف والموضوع، المحدثون فرسان الإسلام عبدالله بن المبارك يقول: ما بيت رجل النية في الليل في الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وقيض الله له في الصباح أن يفضحه ويكشفه ويكذبه، هذا عهد ربنا عز وجل ، المحدثون جند الله ، المحدثون الله خلقهم باستعدادات خاصة لا توجد عند غيرهم في سائر أهل العلوم ، عندهم من الجرأة والشجاعة والصدع بالحق والإصرار عليه ومخالفة الناس كلهم إن خالفوا كلام النبي صلى الله عليه وسلم. هذه الأخلاق موجودة في اهل الحديث، وهي موجودة إلى قيام الساعة، فبعض الناس لا ينتفع بالكلام يكذب الخبر. فالذي كذب الخبر كيف ينتفع به.

الضلال المبين يجتمع جهل وهوى يصبح ضلال، فبعض الناس أصله أعوج وإذا كان أصله أعوج، مستحيل يكون الأصل غير أعوج وهو يكون ليس كذلك، فبعض الناس يقول لك أنا لا اؤمن إلا بالقرآن، وهذا كفر ، فالسنة لها عدة مفاهيم، ومن مفاهيم السنة على أنها اصل تشريعي كلي، من أنكر هذا الأمر كفر وخرج من الإسلام.

السنة في علم أصول الفقه مصدر تشريعي كلي، فمن أنكره كفر.

والسنة عند الفقهاء دون الواجب وفوق المباح يثاب فاعلها ويلام تاركها وهذا لا يكفر. والسنة عند علماء العقيدة مثل السنة للخلال. والسنة للألكائي والسنة للطبراني و يا ليتنا نجده الطبراني واسع الرواية له كتاب اسمه السنة ما وجدناه إلى الآن.

السنة عندهم هو معتقد أهل الحديث فمن خالف السنة إما فيه كفر وإما فيه ضلال. على معنى أن السنة هي المعتقد الصحيح.

فالناس لا ينتفعون ويتشبهون بالأنعام. وردت الآية أصالة في الكفار، ولكن قد يكون بعض الناس كذلك كالأنعام. وهو مسلم لا يفهم ولا يقبل أن يفهم هذا فيه شبه بالأنعام ، فالمكذب لا ينتفع بالخبر .

السبب الثاني:

أن هذا الخبر لا يعنيك ، والخبر الذي لا يعنيك لا يؤثر فيك ولا تنتفع به.

يعني لو واحد الآن دخل للمسجد فقال بأعلى صوته وأخبرنا خبرا وهذا الخبر لا يعنينا. فقال فلان النائب في ولاية في امريكا مات مالنا وله، فبعض الناس لا ينتفع بقال الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر لا يعنيه .

لذا قال الله عز وجل وهو شهيد.

(إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع قال وهو شهيد).

فالأمر ما يعنينا لا يؤثر فينا .

في ناس من المسلمين ما تعجبهم بعض الأقوال ؟

كثير.

إنسان مثلا يشرب الخمر، والخطيب خطب خطبة يوم الجمعة عن الآيات والاحاديث في حرمة الخمر ، لما الشيخ يتكلم عن الخمر وحرمة الخمر هو يصبح غير شهيد، لا يعنيه، يعني يشغل نفسه حتى لا يسمع كلام الخطيب وهكذا قل في الربا .

إنسان مرابي مصر أن يلقى الله مرابي، والخطيب يتكلم عن آيات الربا والله عز وجل يقول (فأذنوا بحرب من الله). وصح عند ابن جرير عن عبد الله ابن عباس ان الله يقول للمرابي يوم القيامة يا فلان ابن فلان. ويسميه ويسمي أباه. يا فلان ابن فلان قم احمل سلاحك وحاربني. الحرب اليوم بيني وبينك.

وقل هكذا بالنسبة للمرأة لمن تزوج متبرجة أو من كانت ابنته متبرجة.

هو في هذا الجانب كالأنعام.

لماذا في آيات كثيرة في القرآن في تحريم الربا؟

آيات كثيرة في تحريم الخمر.

آيات وأحاديث كثيرة ((يا أيها النبي قل لأزواجك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين))، (صنفان من أهل النار لم أراهما معهم أسواط يجلدون الظهور ظهور الشعوب ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات) تعرفون ما هو سر الجمع بين الخبر بين الأمرين؟

ليبين لنا النبي صلى الله عليه وسلم قاعدة أصيلة ومهمة جدا أن الظلم السياسي والفساد الخلقي توأمان لا ينفكان، إذا أراد الحاكم ان يظلم شعبه ينشر المعاصي، فإذا انتشرت المعاصي بين الناس يمارس ما شاء من ظلم عليهم. لأن المنبطح لشهوته لا يقوى أن يقول للظالم أنك ظالم.

فالظلم السياسي والفساد الخلقي توأمان لا ينفكان، وهذان التوأمان أخبر عنهما النبي صلى الله عليه وسلم.

النبي لا يتكلم من عنده ، من وحي يوحى كلامه صلى الله عليه وسلم .

فالسبب الثاني من أسباب عدم انتفاع الناس بالمواعظ أن الكلام لا يعنيهم وبالتالي لما يتكلم الواعظ بهذا فالكلام ما يعنيني ، أنا بنتي خلاص متبرجة تبقى متبرجة أو زوجتي متبرجة ستبقى متبرجة وهكذا.

السبب الثالث:

هو صدق الخبر، والخبر يعنيه ولكن هنالك شيء في تقديره أهم منه هو منشغل فيه. ولنضرب مثل واحد عنده أنعام عنده شياه وبقر وهو جالس في بيته وخرجت ترعى لتأكل من الأرض العشب فقطعت الشارع فجاءت سيارة فضربتها فذهبت مجموعة منها .

هذا الخبر يعنيه أو لا يعنيه ؟

طبعا يعنيه، ولكن هنالك شيء في تقديره أهم منه هو منشغل فيه .

هل يتأثر ؟

يتأثر.

وهو ينظر سمع صوت زوجته تصيح وتبكي وتقول أبوك مات. هل خبر الأنعام يعنيه أم خبر أبوه يعنيه؟

خبر أبوه يعنيه ، الأنعام لا تعنيه، جاء خبر أشد وقعا و أكثر تأثير تأثر فيه.

فأغلب حال الناس في عدم استجابتهم لأوامر الله عز وجل السبب الثالث.

السبب الثالث: يصدقون الأخبار ويتأثرون لكن هنالك ما يشغلهم عنها والذي يشغلهم عنها هوى وملاذ ودنيا والهوى من الهوان، والدنيا في اللغة مصدر من الدنو فهي دنيا، لو أنهم عرفوا الأخرة وعلموا أنها هي خير وأبقى كما قال الله عز وجل : {وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (17)} الأعلى لحينئذ فهموا واستجابوا وأعملوا قلوبهم وأعملوا سمعهم.

فهذا المثل أصاله في الكفار والله عز وجل قال عن الكفار(أكثرهم) لأن هنالك من الكفار ما يريد الله تعالى بهم خيرا، فهو غافل فمتى تذكر رجع إلى الحق وتاب إلى الله سبحانه وتعالى.

الإمام ابن القيم في هذا المثل في كتبه حقيقه ذكر لطائف كثيرة.

بدأ بلطيف في كتابه (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل)

ذكر مسائل عنونها بقوله: كثير من العقلاء يتعلم من الحيوانات البهم أمور تنفعه في معاشه و أخلاقه و صناعته وحربه وحزمه وصبره، وهدايات الحيوان في مثل هذه الأشياء الغريزية الفطرية أشد من هداية الأنسان، فالإنسان يتعلم من هداية الله سبحانه وتعالى للحيوانات قال الله تعالى: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44)} الأنعام.

قال أبو جعفر الباقر: والله اقتصر على تشبيههم بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلا قال: فمن هُدى الأنثى من السباع الأنثى من السباع إذا وضعت ولدها ترفعه في الهواء

أياما تهرب به من الذر والنمل ، حرص السباع على الأولاد والله ابن ادم لا يصل حرصه إلى هذا الحال.

قيل لشيخ من قريش من علمك هذا كله وكان رجلا متميزا في قريش ولا يُعرف هذا إلا من أصحاب التجارب والتكسب؟

فقال: علمني الله ما علم الحمامة ، تقلب بيضها حتى تعطي الوجهين جميعا نصيبهما من حضانتها ولخوف طباع الأرض على البيض إذا استمر على جانب واحد.

هذا درس للحرص على الأولاد وفي الحرص على العدل بينهم.

وقيل لآخر: "من علمك اللجاج في الحاجة والصبر عليها وإن استعصت حتى تظفر بها تبقى تلح على حاجتك تبقى مصر على أن تحقق حاجتك .

قال: من علم الخنفساء إذا صعدت في الحائط تسقط ثم تصعد ثم تسقط مرارا عديدة حتى تستمر صاعدة"

وهذا أمر مشاهد في الدواب.

وقيل لآخر: "من علمك البكور في حوائجك أول النهار لا تخل بها؟

الناس اليوم أعمالهم للأسف تبدأ بعد الظهر النهار يبدأ بعد الظهر هذه الأيام الفجر من الليل وليس من النهار الله يقول: {حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ} الآية

الفجر متى؟

لو الناس تستفيد من أوقاتها من الفجر للظهر يكفيهم.

اللهم اجعل بركه أمتي في بكورها .

البكور اليوم هو الذي فيه البركة.

الحديث : «عن صَخْر بن وَدَاعَة الغامدي ﷺ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اللهم بارك لأمتي في بُكُورها» صحيح أبي داوود

وقيل لآخر: "من علمك البكور في حوائجك أول النهار لا تخل بها؟

قال: من علم الطير تغدو خماصا كل بكرة في طلب أقواتها على قربها وبعدها لا تسأم ذلك ولا تخاف ما يعرض لها في الجو والأرض"

وقيل لآخر: "من علمك السكون والتحفظ والتماوت حتى تظفر بأربك فإذا ظفرت به وثبت وثوب الأسد على فريسته؟

فقال: من الذي علم الهر أن ترصد جحر الفأرة فلا تتحرك ولا تتلوى ولا تختلج كأنها ميتة حتى إذا برزت لها الفأرة وثبت عليها كالأسد".

وطول ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه (شفاء العليل) طول في بيان أن العبد قد يستفيد من ما كتبه الله وقدره الله عز وجل وهدى الحيوان هداية فطرية، والإنسان يتأثر فيها.

أما الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه (مدارج السالكين) فله وقفات جيده مع الآية وعميقه للغاية، وبدأها بمسألة شائكة وهي، مهمة بدأها بالمفاضلة بين السمع و البصر.

أيهما أحسن السمع أم البصر؟

تصل من خلال السمع إلى علم اليقين عين، و من خلال البصر تصل إلى عين اليقين فالبصر يدخل عليك شيئا زائد عما يدخله السمع.

أشد نعيم لأهل الجنة وهم في الجنة ما هو؟

بالبصر ام بالسمع؟

النظر.

أتشد نعيم لأهل الجنة أن يروا الناس الله جل في علاه

اسأ الله أن يمتعنا بالنظر إلى وجه سبحانه و تعالى.

النعيم الذي يترتب على البصر أشد من النعيم الذي يترتب على السمع، الأصوات قد تتداخل، أما النظر فلا، فالزور في السامع اوسع من الزور في البصر، ولذا علم اليقين وعين اليقين.

فعقد مقارنة طويلة والكلام فيها كثير ، ثم قال كلمة بديعة قال وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه بين الطائفتين، وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – بين الطائفتين حكما حسنا . فقال : ((المدرك بحاسة السمع أعم وأشمل . والمدرك بحاسة البصر أتم وأكمل)).

السمع أعم وأشمل، تدرك من لا ترى.

((فللسمع العموم والشمول ، والإحاطة بالموجود والمعدوم ، والحاضر والغائب ، والحسي والمعنوي ، وللبصر : التمام والكمال . وإذا عرف هذا . فهذه الحواس الخمس لها أشباح وأرواح ، وأرواحها حظ القلب ونصيبه منها . فمن الناس: من ليس لقلبه منها نصيب إلا كنصيب الحيوانات البهيمية منها . فهو بمنزلتها . وبينه وبينها أول درجة الإنسانية . ولهذا شبه الله سبحانه أولئك بالأنعام . بل جعلهم أضل . فقال تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) ولهذا نفى الله عن الكفار السمع والبصر والعقول .

الكافر سبحان الله له سمع وله بصر وله عقل يعقل به ، ولكن يضعه في غير موضعه .

((إما لعدم انتفاعهم بها . فنزلت منزلة المعدوم . وإما لأن النفي توجه إلى أسماع قلوبهم وأبصارها ، وإدراكها . ولهذا يظهر لهم ذلك عند انكشاف حقائق الأمور . كقول أصحاب السعير لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير)).

فممكن أن هذا المثل يتكشف لهم يوم القيامة، فيقولون لو كنا نعقل أو نسمع ، نسمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم في حق الكفار ممن أدركوا النبي صلى الله عليه وسلم أو اتباعهم، ومن وصلهم الإسلام ، لو كنا نسمع: السمع الذي يترتب عليه ، والذي يترتب على السمع العقل، سبحان الله الآية تتناسب تماما مع المثل، الهداية وانتشار الدين في السماء، انتشار العلم بدأ في ضبط الصدر وانتهى بضبط السطر، بدأ العلم بالسماع، ولذا العلماء الذين لا يقرأون ولا يكتبون كُثر في الأقدمين، هو لا يقرأ ولا يكتب ولكنه عالم، من أين علمه؟

من سمعه.

((ومنه في أحد التأويلين قوله تعالى وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون فإنهم كانوا ينظرون إلى صورة النبي صلى الله عليه وسلم بالحواس الظاهرة ، ولا يبصرون صورة نبوته ، ومعناها بالحاسة الباطنة ، التي هي بصر القلب)).

فالسمع ثابت لهم وبه قامت الحجة عليهم.

ثبت في صحيح الإمام مسلم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (والذي نفسي بيده ما سمع بي رجل ولم يؤمن بي إلا كانت الجنة عليه حراما).

من سمع بي ولم يؤمن بي.

النصراني واليهودي في هذه الأيام سمع بالنبي صلى الله عليه وسلم. الجنة عليه حرام. الحجة قامت على الكفار لما سمعوا به وهم يسمعون ولكنهم لا قلوب لهم أمر لا يعنيهم، إما انهم مكذبون وهذا هو الأصل أو إن الأمر لا يعنيهم. في النبي مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم، في إسلام، في باطل، في حق، ما يعنيهم. يعيش في لذة كالبهيمة يعيش في شهوة .

فأنهم كانوا يسمعون القرآن من حيث السمع الحسي المشترك كالأنعام، الأنعام تسمع ولا تسمع.

كالأنعام التي لا تسمع الا نعيق الراعي بها يدعوها وينايديه، ولكنهم لم يسمعوه الكفار القرآن بالروح الحقيقي الذي هو روح حاسة السمع التي هي حظ القلب فلو سمعوه من هذه الجهة لحصلت لهم الحياة الطيبة التي منشأها من السماع المتصل أثره بالقلب ولزال عنهم الصمم والبكم.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾. إذنه فيه وقر. في أذانهم وقر. القرآن عليه عمى. الكافر لما يسمع القرآن عمى. فلا يسمع. فهذا السماع الذي سماه الإمام ابن القيم في كتابه البديع مدارك السالكين حظ القلب، السمع ذو الروح الحقيقي.

و لأنقذوا نفوسهم من السعير بمفارقة من علم السماع والعقل.

حصول السمع الحقيقي مبدأ لظهور آثار الحياة الطيبة التي هي أكمل أنواع الحياة في هذا العالم. فإن بها يصلح ويطهر هذا القلب ويعتدل فتتم قوته وحياته وسروره ونعيمه وبهجته، وإذا فقد غذاءه الصالح احتاج إلى أن يعتاض عنه بغناء خبيث.

سبحان الله. سبحان الله.

الذي لا يسمع القرآن ولا يلتذ به يحتاج حاجة ضرورية للغناء، والذي يسمع الغناء لا يمكن أن يسمع القرآن، والذي يسمع القرآن ويشغل القرآن لا يريد أن يسمع الغناء. غذاء، السمع يحتاج للغذاء. حاسة. السمع حاسة. فهذه الحاسة لابد لها من غذاء. فإذا ما أخذت الغذاء الطيب النافع لابد لها ان تعتاض عنه بغذاء خبيث.

لذا المؤمن يسمع العلم ولا يطيق أن يسمع الغيبة والنميمة. أمران متناقضان. الذي يغتاب ويسمع الكلام الباطل فهذا هو غذاء فاسد. لا بد للسمع من غذاء.

وإذا فسد غذاءه خبث ونقص من حياته وقوته وسروره ونعيمه بحسب ما أفسد من غذائه كالبدن إذا فسد غذاءه نقص.

فلما كان تعلق السمع الظاهر الحسي بالقلب أشد ، تعلق السمع بالقلب وتأثر القلب في السمع أشد من تأثر القلب بالبصر.

الآية تفيد (أم لهم) الأسماع والأبصار أن الصلة بين القلب والسمع أشد من الصلة بين البصر والسمع.

يقول لذلك يؤدي آثار ما يتعلق بالسمع الظاهر إلى القلب أسرع مما يؤدي إليه آثار البصر الظاهر. ولهذا ربما غشي على الإنسان إذا سمع كلاما يسره أو يسوؤه، أو صوتا لذيذا طيب مطربا مناسبا ولا يكاد يحصل له ذلك من رؤية الأشياء المستحسنة بالبصر الظاهر.

أثر السماع عليك أشد من أثر الرؤية الحسنة وهذا أمر معروف.

فكلما تجردت الروح والقلب وانقطعا عن علائق البدن كان حظهما من ذلك السماع أوفى، وآثارهما به أقوى.

فإن كان المسموع معنى شريفا بصوت لذيذ حصل للقلب حظه ونصيبه من إدراك المعنى وابتهج به أتم ابتهاج على حسب إدراكه له وللروح حظها من لذة الصوت ونغمته وحسنه فابتهجت به فتضاعفت اللذة ويتم الابتهاج ويحصل الارتياح حتى ربما فاض على البدن والجوارح وعلى الجليس هذا لا يحصل على الكمال في هذا العالم ولا يحصل إلا عند سماع كلام الله تعالى.

تسمع كلام الله وأنت تفهمه ولا سيما في ليل ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ ناشئة الليل لآخر الليل أقوم قيلا.

ما حكم أقوم قيلا ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ ؟

أقوم قيلا يرتبط السمع بالقلب وهو أقوم ونفعها أظهر وأتم وأكمل، فتسمع بقلب حاضر وتتلذذ بكلام الله عز وجل.

لذا ابن القيم يقول عن نبينا صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل الثلث الأخير امتشط. كان له ضفائر. كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يحلق إلا في حج أو عمرة، النبي حج مرة واعتمر ثلاث عمرات، حلق رأسه أربع مرات فقط. كانت له ضفائر صلى الله عليه وسلم، يقول فكان يمتشط ويكتحل ويتزين ويتطيب ويستان ثم يقوم ويناجي ربه طويلا، يصلي نصف الليل أو أكثر من النصف أو ثلثه، يصلي النبي صلى الله عليه وسلم صلاة النبي صلى الله عليه وسلم في قيامه نصف الليل أو ثلثه، وهو يتلذذ بالقرآن، فهذه النعمة التي ما بعدها نعمة.

لذا لو قرأنا المفاضلة بين البصر والسمع المرتبطة بالبصر لما قال اتم النعمة. قال لا. أتم النعمة السمع لأن المؤمنون في لذة عندما يسمعون كلام الله منه.

ووردت بعض الآثار أن أهل الجنة يسمعون القرآن من كلام الله سبحانه وتعالى. الأحاديث المرفوعة ضعيفة في هذا الباب وصح شيء مقطوع في هذا الأمر.

لكن السمع أيضا لذة ليس بعدها لذة.

فإذا أقبل بكليته على المسموع فألقى السمع وهو شهيد وساعده طيب صوت القارئ كاد القلب يفارق هذا العالم ويلج عالما أخر ويجد له لذة لا يعهدها في شيء البتة وذلك رقيقة من أهل الجنة في الجنة.

هذه هي رقيقة ليست هي الدنيا لكنها رقيقة إطلالة. وأنت في الأرض تعيش في الجنة.

ولذا النبي صلى الله عليه وسلم قال في الحديث إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا.

ولذا بعض الصالحين كان يذكر الله عز وجل ويقول: من لم يدخل جنة الدنيا حلقات الذكر والحلقات التي قال عنها الإمام ابن القيم. قال من لم يدخلها في الدنيا لا يدخلها في الآخرة، حلقات الذكر فيها إطلالة إذا حضر قلبك وسمعت وأنت شهيد هذه فيها من رائحة الجنة، فيها من نعيمها من روحها وريحانها فيها شيء في الجنة.

فالله يجبر قلوب العباد بهذه حتى يشتاقوا له، فإن اشتاقوا له سبحانه وتعالى الله لا يبقيهم، من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه.

قال العلماء البكاء بكاءان: بكاء شوق وبكاء خوف، فمنهم من يبكي خوف من معاصيه، فقالوا بكاء الشوق أحسن بكثير من بكاء الخوف. تبكي وأنت تشتاق لله. إذا احببت قريب لك تبكي شدة حبك له، وإذا حضر قريب لك وكان عزيزا عليك تبكي لما تلقاه، فالعبد الصالح كذلك مع الله.

فيا له من غذاء ما أصلحه وما أنفعه. هذا الغداء الذي تأخذه من سماعك لكلام الله عز وجل.

ثم قال ابن القيم رحمه الله وحرام على قلب قد تربى على غذاء سماع الشيطان أن يجد شيئا من لذة ذلك في سماع القرآن.

الذي يصرف سمعه لمعاصي حرام عليه أن يجد لذة القرآن.

الذين يتطلعوا المسلسلات التلفزيون لما تأتي صلاة التراويح، ويقول بقين واقفين والإمام طول.

واحد مرة بقول والله الإمام اليوم قرأ فينا القرآن قرأ فينا سبع مصاحف سبع مصاحف. ما قراء المصحف قال سبع مصاحف.

فالذي يرخي سمعه للذة محرمة القرآن ثقيل ولا يتلذذ بالقرآن. كثير من الناس يعتقد إن ليلة القدر أنه يقوم الليل، ليلة القدر أن ينشرح صدرك لما تسمع وأن تفهم.

ولذا أبي يقول في صحيح مسلم يقول: من قام ليالي السنة فقد أصاب ليلة القدر.

يعلم أن ليلة القدر في رمضان.

لكن من الذي يصيب ليلة القدر؟.

الذي يجد هذا الانشراح في سماع القرآن.

إنسان غافل طول السنة هذا يريد التدليس والكذب على الله، يأتي ليلة القدر ويروح. ليلة قدر ويروح ينام ويفعل ما يريد، هذا تدليس وكذب على الله عز وجل.

ليلة القدر يحتاج أن يروض نفسه على سماع القرآن على هذا الحال، أن يتلذذ بسماع القرآن وأن يبتعد عن صرف السمع في معصية من معاصي الله عز وجل.

فقال رحمه الله آخر كلامه فيما يعنينا قال:

وليس في نعيم أهل الجنة أعلى من رؤيتهم وجه الله محبوبهم سبحانه وتعالى عيانا وسماع كلامه منه.

أعلى نصيب وأعلى لذة وأحسن شيء في الجنة لأهل الجنة أن يروا وجهه سبحانه وتعالى وأن يسمعوا كلامه منه.

فأرجو الله عز وجل أن لا يحرمنا هذه النعمة.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.